

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ

الدلائل الروائية الراقية لقاعدة «الجمع» السامية

لقد استحضر صاحب الجواهر بعض الروايات التي تعيينا لاقتباس قاعدة «الجمع مهما أمكن» وقد ألفينا على عدة أخرى بهذا الشأن وفقاً للنحو الآتي:

— «عن البطائني قال: دخلت أنا وأبو بصير على أبي عبد الله عليه السلام فبینا نحن قعود إذ تكلم أبو عبد الله عليه السلام بحرف، فقلت أنا في نفسي: هذا مما أحمله إلى الشيعة، هذا والله حديث لم أسمع مثله قط، قال: فنظر في وجهي، ثم قال: «إني لأتكلم بالحرف الواحد لي فيه سبعون وجهاً إن شئت أخذت كذا وإن شئت أخذت كذا»[1]

— «الصادق في العيون، عن أبيه عن علي بن إبراهيم عن أبي حيون مؤلِّي الرِّضا عن الرِّضا عليه السلام قال: من ردَّ مُتشابهَ القرآنِ إلى مُحْكَمِهِ هُدِيَ إلى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ثُمَّ قال إنَّ فِي أَخْبَارِنَا مُتَشَابِهًَا كَمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَ مُحْكَمًّا كَمُحْكَمِ الْقُرْآنِ فَرُدُّوا مُتَشَابِهَهَا إلى مُحْكَمِهَا وَ لَا تَتَبَعُوا مُتَشَابِهَهَا دُونَ مُحْكَمِهَا فَتَضَلُّوا». [2]

و الرواية الثانية تُهدي لنا نكتة إجتهادية مثالية حيث إنَّ الأعاظم يدرُّسون دوماً «الجمع الدلالي العربي بين الروايات» بينما قليلاً ما يهتمون «للمتشابهات الروايات و محكماتها» و لكن يَبَدو أنها قد تكاثرت في نطاق العقائد نظير المرويات المصرحة: «مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي نَصْرِ عَنْ حَسَانِ الْجَمَالِ قَالَ حَدَّثَنِي هَاشِمُ بْنُ أَبِي عُمَارَةِ الْجَنَبِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: أَنَا عَيْنُ اللَّهِ وَ أَنَا يَدُ اللَّهِ وَ أَنَا جَنْبُ اللَّهِ وَ أَنَا بَابُ اللَّهِ». [3] و خاصةً أنَّ الرواية الثانية قد استَخدَمت عبارة: «فَتَضَلُّوا» مما يعني أنَّ المتشابهات و المحكمات ترتبط بالمسائل العقدية.

فرغمَ أنَّا قد التَّقطَنا 24 ضابطاً و أقواباً في تفسير «المحكم و المتشابه» ثُمَّ ناقشناها بأسراها، إلا أنَّ المحصول النهائي أنَّ المحكم يُمثِّل الصَّراحة و الجلاء المعاني بحيث لا يَنْقُبُ وجوهاً مُتَبَعِّثَة، عكساً للمتشابه الحاوي لشَّتَّى الأوجه.

و أساساً إنَّ عَطْفَ المتشابهات على المحكمات يُعدَّ منهاجاً حسيناً قد ورثناه من بيانات آل البيت عليهم السلام لدى عملية تفسير القرآن المتنان، و على منواله سُنْفِرَ الآية المتشابهة التالية: «لِيغْفِرَ لِكَ اللَّهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ»[4] بما يُلائِم المحكمات المذكورة - أي العصمة القطعية - [5] فبالنَّتَالي لا يَحدُثُ أَيْ تضاربٍ بين المتشابهات و بين المحكمات أبداً فِي إِنْ نُسْبَهُمَا كنسبة الحاكم مع المحكوم و الوارد مع المورود، و من المبرم أنَّ الْأُولَئِينَ تَتَفَوَّقُونَ عَلَى الْثَّانِيَنَ، فكذلك المحكم تجاه المتشابه، فعلى هذا المِنْوال أيضاً سُيُّفِرَ معنى «وَ جَاءَ رَبَّكَ وَ الْمَلَكَ»[6] حيث إنَّها متشابهة بتَّا و لكن حيث قد اتَّضح المَرَامُ بِأَنَّهُ تَعَالَى عَدِيمُ الْجَسْمِ وَ فَقَاءُ لِلآية التالية: «لِيَسْ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ» و «الله نور السماوات و الأرض» فأصبحت هذه مُحَكَّمةً فائقةً و مُفْسِرَةً لتلك المتشابهات تماماً.

و تكملةً لذلك، سُنْفِرَ أيضاً الآية المتشابهة الآتية: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِيٌّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْبَيْتِهِ

فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[7] حيث قد اشتَبه البعض في تفسيرها فحرَّف معناها زاعماً أنَّ الشَّيْطَانَ يَتَيَسِّرُ لِهِ التَّصْرِيفُ فِي أَفْكَارٍ وَإِرَادَاتِ الْمَعْصُومِينَ «بِالْفَلَاءِ الْوَسُوْسَاتِ» فِي نُفُوسِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - مُسْتَدِلاً بِفَقْرَةِ «أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أَمْنِيَّتِهِ» -[8].

فالمستَنْتَجُ أَنَّ تَجْمِيعَ الْمَعْانِي وَالْاِنْصَارَافَاتِ وَالْمَعَارِيْضِ وَالْأَوْجَهِ مَعًا ضَمِّنَ إِطَارٍ مُشَتَّرٍ كَسُّونَجَ قَاعِدَةَ الْجَمْعِ مِهْمَا أَمْكَنَ.

ثُمَّ صَاحِبُ الْجَوَاهِرِ قَدْ أَطَالَ حَوَارِهِ حَوْلَ قَاعِدَةِ الْجَمْعِ أَيْضًا قَائِلًا:

«وَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، وَأَدْنَى مَا لِإِلَامِ أَنْ يُفْتَنِي عَلَى سَبْعَةِ جُوهَرٍ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْتُنَّ أَوْ أَمْسِكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»[9] (وَهَذِهِ نَاصِّةٌ عَلَى مُشَرِّعِيَّةِ الْإِمَامِ أَيْضًا) وَلَا أَقْلَى مِنْ موافَقَةِ الْجَمْعِ غَالِبًا لِمَا دَلَّ عَلَى أَنَّكَ: «بِأَيْهِمَا أَخْذَتَ مِنْ بَابِ التَّسْلِيمِ وَسِعْكِ»[10] أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ مَنَافِ لَهُ».

مِنْظَارُ الْمُحَقِّقِ الْخَوَيَّيِّ بِشَأنِ «سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» وَالْمَعْانِي
لَقَدْ نَسَبَ الْمُحَقِّقِ الْخَوَيَّيِّ كَافَّةَ الْمَرْوِيَّاتِ الْمُتَحَدِّثَةِ حَوْلَ «سَبْعَةِ أَحْرَفٍ» إِلَى الْفِرْقَةِ الْبَكَرِيَّةِ قَائِلًا:

«لَقَدْ وَرَدَ فِي رِوَايَاتِ أَهْلِ السُّنْنَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَيَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَتَعَرَّضَ إِلَى التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ ذَكْرِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ: أَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ عَنْ يُونُسَ وَأَبِي كَرِيبٍ، بِإِسْنَادِهِمَا، عَنْ أَبِنِ شَهَابٍ، بِإِسْنَادِهِمَا، عَنْ أَبِنِ عَبَّاسٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَفَرَأَيْتِي جَبَرِيلَ عَلَى حِرْفٍ فَرَاجَعَتِهِ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيْدَهُ (حِرْفًا) فَنَزَّيْدُنِي حَتَّى اِنْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ».[11].

ثُمَّ قَيَّمَهَا الْمُحَقِّقُ الْخَوَيَّيِّ قَائِلًا:

«.... هَذِهِ أَهْمَّ الرِّوَايَاتِ الَّتِي رُوِيَتْ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَكَلَّهَا مِنْ طَرْقِ أَهْلِ السُّنْنَةِ، وَهِيَ مُخَالَفَةٌ لِصَحِيحَةِ زَرَارَةِ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ عَلَيْهِ السَّلَامِ قَالَ: «إِنَّ الْقُرْآنَ وَاحِدٌ نَزَلَ مِنْ عَنْدِ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّ الْاِخْتِلَافَ يَجِدُهُ مِنْ قَبْلِ الرِّوَايَةِ»[12] وَقَدْ سَأَلَ الْفَضِيلُ بْنَ يَسَارَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَالَ: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَذَبُوا - أَعْدَاءُ اللَّهِ - وَلَكُنُّهُ نَزَلَ عَلَى حِرْفٍ وَاحِدٍ مِنْ عَنْدِ الْوَاحِدِ»[13] وَقَدْ تَقْدَمَ إِجْمَالًا أَنَّ الْمَرْجَعَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي أُمُورِ الدِّينِ، إِنَّمَا هُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَأَهْلُ الْبَيْتِ الَّذِينَ أَذْهَبُوا اللَّهَ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهَرُوهُمْ تَطْهِيرًا «وَسِيَّاطِي تَوْضِيْحَهُ مُفْصَلًا بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَا قِيمَةٌ لِلرِّوَايَاتِ (لِلْفِرْقَةِ الْبَكَرِيَّةِ حَتَّى لَوْ وُثِّقْتَ مَرْوِيَّاتَهُمْ وَرَجَالَهُمْ) إِذَا كَانَتْ مُخَالَفَةً لِمَا يَصِحُّ عَنْهُمْ (لِدِي الْمَقَايِيسِ الشَّيْعِيَّةِ) وَلَذِكَّ لَا يَهْمَنُّ أَنْ نَتَكَلَّمُ عَنْ أَسَانِيدِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ، وَهَذَا أَوْلَى شَيْءٍ (أَيْ مَجْرِدَ التَّصَادِمِ سَوْفَ) تَسَقُّطُ بِهِ الرِّوَايَةُ عَنِ الْاِعْتَبَارِ وَالْحَجَيْةِ. وَيَضَافُ إِلَى ذَلِكَ مَا بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ مِنَ التَّخَالُفِ وَالْتَّنَاقْضِ، وَمَا فِي بَعْضِهِ مِنْ عَدَمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالْجَوابِ».[14]

[1] بِصَائِرِ الْدَّرَجَاتِ: ص ٣٤٨

[2] عَيْوَنُ أَخْبَارِ الرَّضَا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ص ٢٩٠ ح ٣٩.

[3] كُلَّيْنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبٍ. الْكَافِي (اِسْلَامِيَّهِ). ١. Vol. ١4٥ تِهْرَان - اِيْرَان: دَارُ الْكِتَابِ اِسْلَامِيَّهِ.

[4] سُورَةُ الْفَتْحِ الآيَةُ ٢.

[5] حيث قد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قائلاً: «فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَكَةَ قَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ عَنْدَ مُشَرِّكِي أَهْلِ مَكَةَ بِدُعَائِكَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ فِيمَا تَقْدِمُ وَمَا تَأْخُرُ لَأَنَّ مُشَرِّكِي مَكَةَ أَسْلَمُ بَعْضَهُمْ وَخَرَجَ بَعْضَهُمْ عَنْ مَكَةَ وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِنْكَارِ التَّوْحِيدِ عَلَيْهِ إِذَا دَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ،

فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفورة بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.» (مجلسي محمدباقر. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول. 8. Vol. 150. ص22).

[6] سورة الفجر الآية 22.

[7] سورة الحجّ الآية 52.

[8] و يَجُدُّ بنا أن نُلَوِّحَ إلى آيات «الوسوسة تجاه المعصوم» حيث يُعِيرُ تعالى قائلًا: «فُوْسُوسٌ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبَدِّيَ لَهُمَا مَا مُرِيَ عَنْهُمَا» (سورة الأعراف الآية التالية: 20) و قال تعالى: «فُوْسُوسٌ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمْ هَلْ أَدْلُكُ» (سورة طه الآية 120). فإجابتهما ساطعة حيث: أولاً: إنّها خطابات تُخُصُّ عالماً منعدماً التكليف نهائياً وقد كان إبليسُ حاضراً في أوساط الملائكة و آدم و حواً مما قد أهله إلى الارتباط معهم. ثانياً: ثمة تمايز رئيسيٌّ ما بين «الوسوسة فيه» و بين «الوسوسة إليه و له» فإنّ الأولى هي التي تتسلّل و تَنْفُذُ في صدور الناس و أفكارهم فيتسلّط عليهم - من دون أن يسلّب اختيارهم - حيث صرّح تعالى قائلًا: «يُوْسُوسٌ فِي صُدُورِ النَّاسِ» و لكنَّ الوسوسة الثانية لا تتدخل في نفوسهم أساساً بل يَدُونَ الشَّيْطَانَ مِنْهُمْ و يُنَاهِزُهُمْ فحسب فِيُلْقِي العَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَا الْمَعْصُومِ، إذن قد عاينت التفاوت الحساس ما بين التعبيرين فإنه تعالى قد ألمّت أنظارنا لهذه النقطة الطريفة، وبالتالي لم يُوسُس الشَّيْطَانَ في أفكار آدم و إرادته أبداً إذ وَسوس «إِلَيْهِ» لا «فِيهِ».

و من الحرّي أيضاً أن نستذكر في هذا الحَقْلِ الرَّوَايَةِ التَّالِيَةَ: «عَنِ الْإِمَامِ الرَّضاِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ حَجَّةً فِي أَرْضِهِ وَخَلِيفَةً فِي بَلَادِهِ لَمْ يَخْلُقْ لِلْجَنَّةِ، وَكَانَتِ الْمَعْصِيَةُ مِنْ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَا فِي الْأَرْضِ، وَعَصْمَتِهِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ لَتَمُّ مَقَادِيرُ أَمْرِ اللَّهِ، فَلَمَّا أَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَهُ حَجَّةً وَخَلِيفَةً بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ». (الوافي ج 2 ص291). وفي مسند الإمام الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ) 125/2: وإنما كان من الصغار المهووبه التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم ، فلما اجتباه الله تعالى وجعله نبِيًّا كان معصوماً ، لا يذنب صغيره ولا كبيره ، قال الله عز وجل: وَعَصَى آدَمَ رَبِّهِ فَغُوْرِيَ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ، فَتَابَ عَلَيْهِ فَهُدِيَ». و لكن لو افترضنا جدلاً أنَّ الأنبياء قبل بعثتهم غيرُ معصومين عن الصغار لوجهناه إلى بعض الأنبياء فقط كآدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بينما عُظُمَاء الأنبياء كخاتم الأنبياء وأوصيائه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) قد ترسَّخت عصمتُهم العليا درجةً من عصمة سائر المعصومين.

[9] البحار، ٩٢:٩٢، ح ١٢.

[10] الوسائل ٢٧:١٠٨، ب ٩ من صفات القاضي، ح ٦.

[11] البيان في تفسير القرآن، ص: 171

[12] اصول الكافي: 1/ 630، كتاب فضل القرآن - باب التوادر، رقم الحديث: 12.

[13] اصول الكافي 1/ 630، كتاب فضل القرآن - باب التوادر - رقم الحديث: 13.

[14] البيان في تفسير القرآن، ص: 177